تجربة قَلَم
(3)

الإصدار التاسع عشر

قيمة الزَّمَن

عند علماء الإباضية

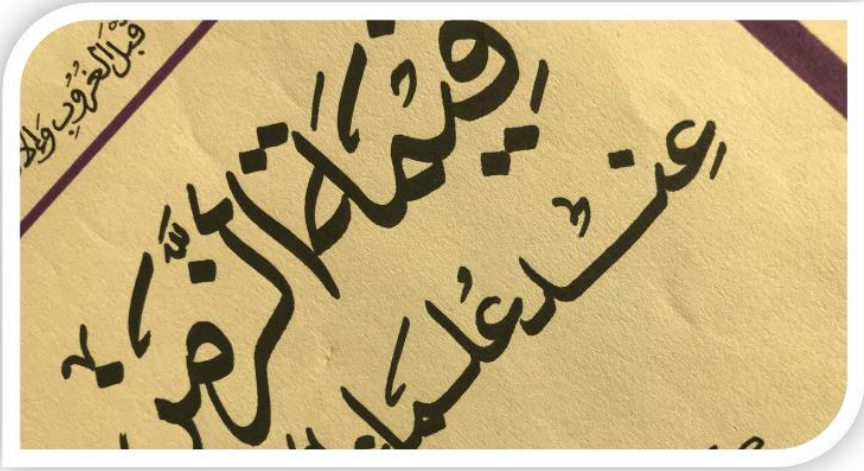

بقلم
سلطان بن مبارك بن حمد الشيباني

سلسلة: تجربة قلم
الحلقة الثالثة
قيمة الزَّمَن عند علماء الإباضية

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الرقمية الأولى
جمادى الأولى 1443هـ/ كانون الأول 2021م

محبوب للنشـــــر الرقمي
مسقط/ سلطـــنة عُمان
البريـــد الإلكـــتروني:
mahboub.pd@gmail.com

قيمة الزَّمَن

عند علماء الإباضية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله،

وعلى آله وصحبه ومن والاه

• تمهيد:

تشرَّفْتُ منذ أمدٍ بتجربة القلم، أتشبَّهُ فيه بأهل الفضل في البَنان؛ فأحاكي خطوطهم، وأتشبّه بأهل الفضل في البَيان؛ فأحاكي أسلوبهم، وأتعاطى التشبُّه بأهل العلم لعلي أحاكي ذرَّةً من عِلمهم.

ونالت خرابيشُ الصِّبا حظوةً لا تستحقها، حتى استنفعتْ محلاتُ التصوير من ظهر الفقير! حسبي أني جنيتُ من ورائها حُسْنَ تقويمِ العارفين، وسديدَ نظرات الناقدين، وجميلَ توجيهات الباحثين، وكريم لِحاظ المبصرين.

ثم إنها انتشرتْ بين أيدي الناس، ورُفِع بعضها في قنوات التواصل وشبكات المعلومات، وما هي إلا (تجربة قلمٍ) ما أكثرَ عثراته!

وأنا أنشر بعضها هنا - كما هي - للذكرى والعبرة، لا مباهاةً بها، ولا توثيقًا لِمَا جاء فيها، والله المسؤول أن يأخذ بأيدينا إلى جادة الصواب، وأن يجنبنا الزلل، ويوفقنا لصالح العلم والعمل.

قال الشيخ الجليل خلفان بن جميل السيابي:

يا نفس ما هو إلا اليوم فاجتهدي ... قبل الغروب وإلا فات وارتحلا

قيمة الزمن
عند علماء الإباضية

كلمات مضيئة
ومواقف مشرقة
من سير أهل الحق والاستقامة

القسم الأول

بقلم
سلطان بن مبارك بن حمد الشيباني

ربيع الأول ١٤٢١هـ

إنّ
الليل والنهار
يعملان فيك
فاعمل فيهما

الخليفة الراشد
عمر بن عبد العزيز
رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

١- إنَّ نِعَمَ الله تعالى على عباده كثيرةٌ لا تُحْصَى، ولا يمكن للبشر أن يحصوها أو يُدركوها على حقيقتها، وذلك لكثرتها واستمرارها وتيسرها، وتتابع إنعام الله بها[1]، وصَدَقَ اللهُ العظيمُ إذ يقول: ﴿وإن تعدُّوا نعمةَ الله لا تحصُوها﴾[2].

٢- وإنَّ مِن أعظم تلك النعم التي تحتاج إلى شُكر المُنْعِم بها: نعمةُ الزَّمَن، فهي من أصول النعم وأَجَلِّها قدرًا وأعظمها خطرًا، وبقَدْرِ ما يشكر الإنسانُ هذه النعمة ويستغلها الاستغلالَ الأمثلَ يَسْعَدُ في دنياه وآخرته، وبقدر ما يَكْفُرها فلا ينتفع بها يخسَرُ من دنياه وآخرته.[3]

٣- ولأهمية الوقت وعظيم قدره عند الله تعالى أَقْسَمَ به سبحانه في آياتٍ كثيرةٍ مِن كتابه، فقد أقسَمَ بالعَصْر - وهو الوقت على ما يراه كثيرٌ من المفسّرين - وأقسَمَ بأجزاءٍ من الوقت كالفجر والضحى والليل وغيرها.

٤- وكما جاء القرآن مُلْمِعًا إلى أهميَّة الوقت جاءت السُّنَّة النبوية - على صاحبها أفضلُ الصلاة وأزكى التسليم - حاثَّةً على الانتفاع بالوقت، وحاضَّةً

---

(١) عبد الفتاح أبو غدة، قيمة الزمن عند العلماء. ص١٥.

(٢) الآية ٣٤ سورة إبراهيم، والآية ١٨ سورة النحل.

(٣) أغلب ما يرد هنا في هذه المقدمة مُلخَّصٌ من محاضرة للشيخ الغازي حفظه الله، عنوانها: «الوقت عمارٌ أو دمارٌ».

على الاستفادة منه، ومُبَيِّنةً أنَّ كثيرًا من النَّاس يُغْبَنون في عَدَم الانتفاع بالوقت، ففي الحديث الصحيح: « نعمتانِ مغبونٌ[1] فيهما كثيرٌ من النّاس: الصّحّةُ والفراغ » . فالصّحة والفراغ إن اجتمعا لشخصٍ ما ولم يسخرهما في طاعةِ الله وذكره وتحصيل العِلم النافع فإنه - ولا ريب - يُعَدُّ مغبونًا، إذ إنَّ هذين الأمرين يندر أن يجتمعا لشخصٍ واحد.

٥- وإنَّ من أول ما يُسْأَل عنهُ العبدُ يومَ القيامةِ: السؤالَ عمّا فعَلَ بزمانه وفي وقت شبابه خاصَّةً، فقد جاءَ في الحديث عنه صلى الله عليه وسلّم: « لا تزولُ قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسْأَلَ عن أربع خصال: عن عُمُرِه فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعَنْ مالِهِ من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عَمِلَ فيه » .

٦- وعَطْفُ الشَّباب - وهو إحدى مراحل العُمر - على العُمر إنّما ذلك للتنويه بشأنه وأهمّيته، فهو من باب عطف الخاص على العام للعناية به، لأنَّ مرحلة الشباب - كما يُقال عنها - هي المَرْحَلَةُ الذهبيَّة من حياة الإنسان، فهي مملوءةٌ قوّةً ونشاطاً وفُتُوَّةً وطموحاتٍ وآمالاً، وكم تغنَّى الشُّعَراء بالشباب بعد فوائه حَسْرةً عليه.

شيئانِ ينقشعانِ أولَ وَهْلةٍ ... سُكْرُ الشباب وخُلَّةُ الأشرارِ
لا حَبَّذا الشَّيْبُ الوفيُّ وحبَّذا ... عصرُ الشباب الخائنِ الغدّارِ

---

(١) المغبونُ هو الخاسر.

٧- وفي زيادات المسند من رواية أبي سفيان محبوب بن الرحيل عن الربيع ابن حبيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجلٍ وهو يعظه: «اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»[1]. فعلى الإنسان أن يبادر إلى اغتنام الفرصة، وأن يجعل من عمره شاهدًا له لا شاهدًا عليه، بما يقدّمه فيه من صالحات الأعمال وجلائل الطاعات.

٨- هذا وللوقت خصائص ومزايا لا توجد في غيره:
منها أنّه سريع التقضّي سريع التصرّم، وكلّ يوم يقرّب الإنسان إلى حتفه المعلوم وأجله المسمّى، ولئن علم الإنسان ذلك فحريٌّ به وجديرٌ أن لا يترك لحظةً من لحظات عمره فيما لا ينفعه. يقول الشيخ الأديب العلامة أبو مسلم البهلاني رحمه الله:

استنبطِ العلمَ وزكِّ العملا ... ولا تعشْ بخرّةٍ سبهللا[2]
لا تترك الأنفاسَ في الهزل سدى ... أدركَ من جدّ وفي الجدّ العلا
جوهرةُ النفسِ إذا ضيّعتَها ... في لعبٍ لم تُلفِ عنها بدلا
رشّحكَ الحقُّ لأمرٍ جللٍ ... تُدركُه إذا ركبتَ الجللا
لو لم يردْ قربكَ من جنابه ... لم يهبِ العقلَ ويهدي السُّبلا[3]

٩- ومن خصائص الوقت أيضًا أنّ كلّ لحظةٍ من اللحظات التي تمرّ على الإنسان لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن تعودَ إليه مطلقًا، يقول أبو مسلم أيضًا:

---

(١) الجامع الصحيح، الحديث رقم ٨٩٦.
(٢) السَّبَهْلَل: هو غير المكترث، لا في عمل دنيا ولا آخرة. القاموس المحيط ص ١٣٠٩.
(٣) أبو مسلم: الديوان ص ٤٥٧

تُوَدِّعُ الأنفاسَ لا تبكي لها ... وَرَجْعُ ما وَدَّعْتَه لا يُرْتَجى
والكلُّ منها راحِلٌ ببضعةٍ ... مِن أجلٍ مُقَدَّرٍ على شَفا
وآخِرُ الأنفاسِ يرجو وقتَه ... فهل ترى تأخيرَه إذا دنا؟
وربَّما فكَّرْتَ في تأخيرِه ... يكونُ أدنى لَكَ مِن فِكرِ الحِجا
فودِّعِ الباقيَ منها مخلصًا ... بالباقياتِ الصالحاتِ في اللقا (١)

١٠ـ ويقول أيضًا في نفس القصيدة المقصورة :

يُبادِرُ الكَيِّسُ أُخْرى عُمرِه ... فَيَرْتَقُ الخَرْقَ ويُوثِقُ العُرى
إذا تولّى أمدٌ مُؤَقَّتٌ ... لم يَبْقَ للرَّجْعَةِ منه مُرْتَجى
وكلُّ ما تَلْبَسُهُ مِن جِدَّةٍ ... يعروه مِن كَرِّ الجديدَيْنِ البِلى (٢)

١١ـ ومِن هُنا فإنَّ سَلَفَنا الصالِحَ عُنُوا أشَدَّ العنايةِ بالانتفاعِ بأوقاتِهم، حتى بَلَغوا إلى ما بلغوا إليه من التمكُّنِ في العلومِ والمعارِفِ، وعندما أهْمَلَ طُلّابُ العِلْمِ الانتفاعَ بأوقاتِهم والاستفادةَ منها صاروا إلى تأخُّرٍ مستمرٍ، حتى اضمَحَلَّ العِلْمُ أو كادَ أن يضْمَحِلَّ، والله المستعان.

١٢ـ ومِن خصائصِ الوقتِ أنَّه ذو أثرٍ كبيرٍ في الواقعِ، سواءٌ في حياةِ الفردِ أو حياةِ المجتمعِ، ولا رَيْبَ في ذلك فإنَّ الوقتَ هو مادَّةُ الحياةِ، والأمَمُ والشعوبُ لم تنهضْ إلا بتسخيرِ أوقاتِها في الخيرِ ومعالي الأمورِ، ولا نعجبُ مما سَمِعْناه عن أوائلِنا مِن الأمجادِ التي حَقَّقُوها، فأولئك قومٌ عَلِموا

---

(١) أبو مسلم: الديوان ص ٤٤.
(٢) نفسه ص ٣٣٨.
والجديدان: هما الليل والنهار. القاموس المحيط ص ٣٤٦.

فحملوا، (١) ولنا أن نُسَرِّحَ الطَّرْفَ في آثارهم الباقية وأعمالهم الخالدة لندرك صدق ذلك، وليس العَيانُ كالخَبَر.

١٣- وأسوق للقارئ هنا جملةً من كلماتهم المضيئة ومواقفهم المشرقة ليرى الحقيقة ماثلةً أمام عينيه ويعرف مَن هُم الرجال.

١٤- قال الخليفةُ الراشدُ عمرُ بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ) رضي الله عنه: «إنَّ الليلَ والنهارَ يعملانِ فيك، فاعمل فيهما» (٢).

---

(١) أضرب للقارئ هنا - أمثلة تبيّن حال أولئك القوم وما وصلوا إليه من عزة ورفعة:

١- قال الشماخي في سيره: ٢/١٣٩: «وتجديت: موضعٌ معلوم بقبلة أريغ، وليست ببعيدةٍ منه، واجتمع فيه من أهل الدعوة والعلماء والطلبة وأهل الصلاح ما لم يوجد في غيره، وعُدَّ فيها مئة عالمٍ لا يَرُدّ أحدُهم مسألةً إلى الآخر إلا من جهة الأدب والكِبَر، وفيها قبر أبي نوح، ومئتان يحفظون مئتي كتابٍ، وثمانون طالبًا توأمًا، وسائر الطلبة كثير، ويحضر الصلاة ثلاثمئة فارس، وإذا كبّر تكبيرة الإحرام نفرت المواشي.. وهذا في زمانٍ واحد. ودَخَل عاملٌ لصَنْهَاجَة ورأى كثرة العزّابة وكثرة الحِلَق وضيقَ الموضع فاعتقد أنهم يدنسون وجه الأرض بالخلا والسَّماد، فدار فيها وحواليها فلم يظفر بشيءٍ مما تكرهه عينه وتعابه نفسه، فقال - وقد مَدَّ يده لسيفه -: ما يخاف الناس إلا من هذا أو من الله، فهذا - يعني السَّيْف - ليس هذا موضعه، وما منعهم من ذلك إلا خوف الله».

٢- وقال الشماخي أيضًا في السير ٢/١٨٧: «وبالجملة إنّ جبل نفوسة احتوى على الكرامات وعلى كثرة الصالحين والعلماء ما لا يوجد بغيره، وذكر أن بعض الأزمنة لا تحتاج فيه قريةٌ إلى قريةٍ للفتيا، إلا إجناون وويغو وتندميرة لا تحتاج دارٌ إلى دارٍ. وقالوا: اجتمع في إجناون سبعون عالمًا في أيّام أبي عبيدة عبد الحميد من أهل ولايته. وذكر أن إمامَ نفوسة في تلك الأعصار إذا وَرَدْنَ أو خرجن إلى الحطب لا يرجعن حتى يتذاكرن جميع مسائل كتاب ماطوس».

٣- ونقل الشيخ السالمي في تحفته ٤/٢ عن الشيخ أبي نبهان جاعد بن خميس الخروصي قولَه في الإمام ناصر بن مرشد: «فضْلُ هذا الإمام يُزاحم فضل الإمامَين: الخليلي بن مسعود وسعيد بن عبد الله، إلا أنّه يفوق، لأن العَدْلَ كثر في زمانه، وطال مَكْثُه وعُمُرُه، وكثر في زمانه العلم والدين والورع...، حتى أنّ مَنْ يبيع اللحم ويبيع البصل فيهم مَن يصلح أن يكون قاضيًا أو واليًا أو خازنًا أو وكيلًا لكثرة أمانتهم وعلمهم».

(٢) عبد الفتاح أبو غدة: قيمة الزمن عند العلماء ص٢٧.

١٥ - ومن غُرَرِ كلام العلامة ابن بركة (ت ٣٦٢هـ) المحفوظ عنه قولُه في علم الشريعة: « هذا عِلمٌ لا يُدركه إلا مَن سهر ليله بالتلاوة، واشتغل نهارَه بالبحث عن الرواية، حتى يحفظ الآيات، ويعرف المحكماتِ من المتشابهات، والناسخات من المنسوخات، فأمّا مَن نَبَذَ القرآن وراءَ ظهره، وقَطَعَ بالبطالةِ أيّامَ عمره، ولم يتعرّض للحفظ فيها، وهو لا يقف على معانيه؛ لم يكن له عدوٌّ أعدى مِن لسانه، ولا ناصحٌ أعدل من شأنه »[1].

١٦ - وعن الشيخ سعيد بن إبراهيم (من أصحابنا المغاربة) (ق ٥هـ) رحمه الله أنه قال:
« لا ينبغي للرجل أن يفني عمره إلا في ثلاثة:
أحدها: أن يأخذ زاده ويطلب العلم، ويعلمه لمن يجهله.
والثانية: أن يأخذ رَسَنَ بعيره يبتغي الربحَ مِن الحلال فيأكله.
والثالثة: أن يأخذ أداة العَمَلِ مِنَ الحديد، يُخرج الماء، ويغرس الأشجار المثمرة في المواضع التي لم تكن فيها أوّلا »[2].

١٧ - وقال أبو سعيد يخلفتن بن أيوب المسناني (ق ٥هـ):
« شَرُّ الليالي على المسلم ليلة لم يستفد فيها فائدة »[3].

١٨ - وقال الشيخ الزاهد درويش بن جمعة المحروقي (ق ١١هـ) رحمه الله: « وإنّه ما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به، فيا حسرةً على ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجة، وأن تؤديه أيامه إلى الشقوة »[4].

---

(١) الكندي؛ المصنف ١/٨٢
(٢) مجهول؛ المعلقات في أخبار وروايات أهل الدعوة. ص ٣٢.
(٣) نفس المصدر، ص ٦٣
(٤) درويش المحروقي؛ الفكر والاعتبار (مقدمة المحقق) ص ٣٢
نقلاً عن: درويش المحروقي؛ الدرر الفاخرة في كشف علوم الآخرة (مخطوط).

١٩ - ومن نظم الشيخ أبي مهدي عيسى بن إسماعيل بن موسى (ت ٩٧١هـ) وهو من تلاميذ الشيخ عمي سعيد الجزيري :

ومَنْ تَفُتْهُ لحظةٌ في عمرِهِ تكن عليه حَسْرَةً في قبرِهِ
يبدو له ثَمَّ خَفِيُّ أمرِهِ
ومَنْ يَقُلْ إني صغيرٌ أصبر ثُمَّ أخافُ اللهَ حِينَ أكْبُرُ
وهُوَ في كلِّ أوانٍ يُبْصِرُ (١)
فإنَّ ذاك غَرَّهُ إبليسُ وقلبُه مُقَفَّلٌ مطموسُ
مُذَبْذَبٌ ورأيُه نَحِيسُ (٢)

٢٠ - ويقول الشيخ محمد بن إبراهيم الكندي (ت ٥٠٨هـ) صاحب بيان الشرع في أرجوزته المسمّاة (النعمة) :

وقالَ قولاً شيخُنا أبو الحسنْ وهو علي السيويُّ ذو الفِطَنْ
بقيّةُ الأشياخِ في خيرِ الزمنْ: مَنْ لم يَكُنْ لِدِينِهِ أو السُّنَنْ
يَعْرِفُه مثلَ طلوعِ الشمسِ لا خيرَ فيه، إنّه ذو لَبْسِ
يصبحُ في جهدٍ وفيه يُمْسِي نجومُه طوالِعٌ بالنَّحْسِ
فانبِذْهُ مخلوعًا درينَ الرِّجسِ نقضٌ على نقضٍ رهينَ النكسِ

.....

فانهضْ إلى العلمِ تُلاقِ الظَّفَرا فلا ترى العاجزَ يجني الثَّمَرا
مَنْ كانَ للعِلْمِ مُحِبًّا أدْرَكَهْ طوبى لِمَنْ في قلبه قد مَلَكَهْ (٣)

---

(١) يُبصر الأموات من الشباب . (من تعليق الشيخ محمد علي دبّوز)
(٢) محمد علي دبوز؛ نهضة الجزائر الحديثة ج١/ص ٢٥١ - ٢٥٢
(٣) محمد بن إبراهيم الكندي؛ كتاب النعمة، ص ١١٣ - ١١٤ .

٢١- ومن روائع أقوال الشيخ العلامة خلفان بن جميل السيابي (ت ١٣٩٢هـ) رحمه الله :

يانفسُ ما أمسِ مِنْ أيّامِ عمرِكِ إذ ... خَلَتْ فلا تَحْسِبي ما كان عنكِ خَلا
يانفسُ إنّ غداً لا تعلمين بِهِ ... لِمَنْ يكونُ لعلّ الحَبْلَ ما وُصِلا
يانفسُ ما هُوَ إلا اليومُ فاجتهدي ... قبلَ الغروبِ وإلّا فاتَ وارتحلا (١)

٢٢- وقال أيضاً:

لا تُذْهِبِ العُمْرَ في لهوٍ وفي لَعِبٍ ... وفي المعاصي فهذا بئسَ ما فَعَلا (٢)
مَن ضيّعَ الوقتَ فيما ليس يُصْلِحُه ... يبوءُ بالمقتِ والخِذلانِ مُنْخذلا (٣)

٢٣- ولئن كان طَلَبُ العلم من أشرفِ ما صُرِفت الأيام لأجله؛ فقد أدرك ذلك مشايخنا الأوّلون، فجعلوا الكتابَ خيرَ أنيس، ورَضُوا به أحسنَ جليس، واسمع إلى قول الشيخ الفصيح يحيى بن ربيعة الكندي (ت ١٣٥٧هـ):

نديمي كتابي بهِ نشْوَتي ... إذا ما احْتَسَى الخيرُ كأسَ الحُيَّا
أُرَدِّدُ طَرْفي بسَطْرٍ وصُحْفٍ ... لقد صارَ إلْفِيَ ما دُمْتُ حَيَّا
فذاكَ طبيبي قريبي نَسيبي ... أَحَبُّ حَبيبٍ عَزيزٌ عليَّا
به هَيَماني بِطولِ زماني ... ولستَ تراني أهيمُ بِمَيَّا (٤)

٢٤- وقال الشيخ بشير بن سعيد بن عبدالله بن أبي سبت (ق ١١هـ) متألّماً ومتحسراً على فَقْدِ كتبه التي احترقت :

بَكَتْ عيني على كُتبي ... بدمعٍ واكِفٍ سَكِبِ

---

(١) الشيخ خلفان بن جميل؛ بهجة المجالس ص ١٣٧
(٢) نفسه ص ١٤٥
(٣) نفسه ص ١٤٦
(٤) الشيخ حمد بن سيف البوسعيدي، قلائد الجُمان ص ٤٥٢ .

وعيني طالما سَهِرتْ ... لها بالليل في طَرَبِ
وبالإصباح مجتهدًا ... وبَذْل النفسِ في الطلبِ
لوجهِ اللهِ مُحْتَسِبًا ... ليومٍ فيه مُنْقَلَبي (١)

٢٥- وقال الشيخ الفقيه خَلَف بن سنان الغافري (ق١٢هـ) رحمه الله:

لنا كُتُبٌ في كل فَنٍّ كأنها ... جنانٌ بها من كُلِّ ما تشتهي النَّفْسُ
جَرَى حُبُّها مِنِّي ومن كلِّ عالِمٍ ... زكيِّ الحِجَى والفَهْمِ حيثُ جَرَى النَّفَسُ
فلا أبتغي ما عِشْتُ خِلًّا مؤانِسًا ... سواها فنِعْمَ الخِلُّ لي وهي الأُنْسُ (٢)

٢٦- وصَدَقَ الشيخُ خالد بن هلال الرجبي (ق١٤هـ) الذي يقول:

العِلْمُ أنفَعُ من جُنْدٍ ومن مالِ ... للمهتدين وأعلى كُلِّ ذي بالِ
فاسهر لمطلبه عينيك مجتهدًا ... واترك مقالةَ لوَّامٍ وعَذَّالِ
حِينًا تُطالِعُ أسفارَ العلوم وأحْـ ... ـيانًا تُسائِلُ فيه كُلَّ مِفْضَالِ
حتى ترى العِلمَ مُنْقادًا أمامَكَ أو ... أَقْصِرْ عِنانَكَ دونَ المنصبِ العالي
إنْ أنتَ لم تترك النومَ اللذيذَ ولم ... تُحْيِي الليالي ولم تُلحِحْ بتسآلِ
فالزمْ منامَكَ إنَّ العِلْمَ يطلبُه ... لِلَّهِ كُلُّ أصيلِ الرأي رِئْبَالِ (٣)

---

(١) الشيخ حمد بن سيف، مرجع سابق ص ٣١
و: رجب عبد الحليم، الإباضية في مصر والمغرب ص ١٧٦
(٢) رجب عبد الحليم، مرجع سابق ص ١٧٥.
(٣) الشيخ خلفان بن جميل، بهجة المجالس ص ٢٢٨.
والرئبال: الأسد، والذئب. القاموس المحيط ص ١٢٩٦.

٢٧- لقد حثَّ الإسلامُ على البكور -وهو الاستيقاظ مبكّراً-، فينهى الإنسان المسلم نهيَ تكريهٍ عند كثيرٍ من العلماء أن ينام بعد صلاة الفجر[١]، ففي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «بورِكَ لِأُمّتي في بُكورها». ويُذكر عن الخليل بن أحمد أحدِ عُقلاء بني آدم قولُه: «أصفى ما يكونُ ذِهنُ الإنسان في وقت السَّحَر»[٢].

٢٨- وقد كانَ السَّلَفُ الصالح رضوان الله تعالى عليهم يتشددون على مَن يَرَوْنَه نائمًا بعد صلاة الفجر أو في وقت الضحى، حتى أنّ ابنَ عباسٍ رضي الله تعالى عنه روي عنه أنه رأى أحَدَ أبنائه نائمًا، فلكزه برجله، وقال له: «قُمْ، لا أنامَ اللهُ عَيْنَك»[٣].

٢٩- وسأَلَ سائلٌ الإمامَ القطبَ (ت١٣٣٤هـ) رحمه الله عَنْ قيام الليل إنْ كانَ يُفضي به إلى النوم بعد صلاة الفجر، فأجابه: «اترُكْ بعض قيام الليل تحرُّزًا عن أن تنام بعد صلاة الفجر» وقال أيضًا: «فلا تنم بعد صلاة الفجر فإنه يمنع بعض الرزق كما في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم، بل اشتغلْ بعملٍ ولو دنيوي، وقم قبل الفجر في أيّ أجزاء الليل شئتَ»[٤].

٣٠- ويقول شيخُنا الغازي حفظه الله: «إنّ هناك فرقًا كبيرًا وواضحًا بين الإنسان الذي يستقبل يومه بجِدٍّ واجتهادٍ ونشاطٍ في طاعة مولاه وفي كسب قوته ومعيشته، وبين الذي يَخُطّ في نومٍ عميق إلى أن ينتصف النهار أو يكاد، فالنومُ في تلك الساعة يقضي على بركة الوقت، والاستفادةُ من ذلك الوقت لاسيما لطلابِ العلمِ خاصّةً أمرٌ ضروري ومهم»[٥].

---

(١) الغازي: الوقت عمارٌ أو دمار. (محاضرة مسجلة).
(٢) أبو غدة: قيمة الزمن عند العلماء. ص ١٠١ و: البطاشي: إتحاف الأعيان ١/١٠٤
(٣) الغازي: مرجع سابق.
(٤) كشف الكرب من أجوبة الشيخ القطب ٣/٨٣
(٥) الغازي: مرجع سابق.

٣١- فينبغي للمسلم أن لا يكل ولا يمل من طلب العلم، وأن لا تفتر همّته عن السعي في تحصيله، فهذا إمامنا أبو الشعثاء جابر بن زيد (ت ٩٣هـ) رحمه الله خَرَجَ يتوكأ وهو ابن سبعين سنة، فقيل له: أين تذهب يا أبا الشعثاء؟ فقال: «أتعلّم ديني»[١].

٣٢- وقد تأسّف أبو الربيع سليمان بن هارون الملوشائي[٢] (ق ٤هـ) لمّا وَصَلَتْه كُتُبٌ من فزّان فلم يستطع قراءتها لكِبَرِه وضعف نظره، وقال: «يا ليتني أدركتُهم في شبيبتي». لكنه لم يستسلم، بل طَلَبَ من تلاميذه أن يقرأوا له، فكان الواحدُ منهم يقرأ عليه حتى يفتر، ثم يرجع الآخَر فيقرأ عليه إلى آخر الليل[٣].

٣٣- «وكانَ القطبُ قد أعطى نفسَه للعلم، فكانت القراءةُ عادةً فيه لم تفارقه إلى أنْ لحق بربّه، يدرس في ليله ونهاره، وقد أعطاه الله مع الحافظة العجيبة والذكاء النادر جسمًا قويًّا وبنيانًا تامًّا، وبصرًا حديدًا لا يكل مهما طالت القراءةُ في الكتابة الرديئة والخط الدقيق.
إنّه إلى آخر عمره - وهو شيخٌ في السادسة والسّبعين - يُمسك الكتابَ مُحاذيًا به أسفل صدره، ويقرأ وهو متكئ إلى الحائط، لا يرفع الكتابَ إلى وجهه أو يَنْكَبُّ عليه كما يفعل ضعفاءُ البصر. وقد استطاعَ بهذه القوى التي حَجَّجَه الله بها أن يدرس الخزائن الكثيرة من الكتب ويعكف على الدرس والتحصيل طول عمره، لا يكل ولا يمل، ولا يقنع مغترًّا بما عنده كما تفعل الزّرافةُ المنتفخة الفارغة في هذا الزّمان»[٤].

---

(١) الحجة الواضحة في ردّ التلفيقات الفاضحة؛ للإمام السالمي (مخطوط). ص ١.
(٢) هكذا ورد اسمه في المصدر الذي أنقل منه هنا، وورد في غيره باسم: أبو هارون موسى بن هارون المملوشائي، وقد أشرتُ إلى قصته بالتفصيل فيما يأتي، فينظر في ذلك.
(٣) أجوبة علماء فزّان، بتحقيق الدكتور الناجي. ص ٢١ (مقدمة المحقق)
نقلاً عن: البطوري؛ سير مشايخ نفوسة، ب: ٧٠.
(٤) دبّوز؛ نهضة الجزائر الحديثة. ١/٣٠٢-٣٠٣.

٣٤- وأورد الشمّاخي في ترجمة أبي هارون موسى بن هارون الملوشائي (ق٤هـ):
« وعادته إذا صلّى العشاء الآخرة وأكمل وِرْدَه جعل للطلبة المجلس هونا من الليل، ثم ينصرف إلى داره، ومعه محمد بن زكريا البغطوري ومحمد بن يفون فيقرأ عليه أحدهما حتى يفتر، ثم يقرأ الآخر إلى آخر الليل، وذلك أن كتبًا أتته من فزان وضعف عن النظر والقراءة بالكبر، ثم يقوم من المجلس مشتغلاً بصلاته، فإذا أذن وصلى صلاة الفجر أخذ في القراءة حتى تطلع الشمس، ثم يجعل لهم المجلس، فإذا افترقوا جلس للقضاء بين الناس إلى الزوال، فيقوم فيشتغل بأمر الصلاة، ولذلك قال بعضٌ: لا ندري متى ينام !! »(١).

٣٥- وهذا الإمام أبو محمّد وارسفلاس بن مهدي (ق٥هـ) العالِمُ بن العالِم
« لما توفي أبوه ركب بغلته، وأتى شروس، فسأله بعضٌ عن مسألةٍ فلم يُحسِنها، فقال له آخر: لو سألت عنها بغلة أبيك أجابتك عنها !... فانكسرت لذلك نفسُه، ودخل قصر وَلَمْ، وفيه خزانه نفوسة، فمكث فيه اثني عشرة سنة يدرس العلم ... ومكث في داره يدرس ديوان أبيه، ولا يُرى خارجًا إلا لحاجة الإنسان، فقام في العلم، وجربه المشايخ بكثرة الأسئلة في المشكلات وغيرها، فما وجدوا عنده خطأ »(٢).

٣٦- ولمّا سُجن أبو محمد ويسلان بن يعقوب المزاتي (ق٤هـ) شكاه أهل السجن، لكونه يسهرهم بالدراسة والقراءة ! فأخرجوه وأطلقوه، وإذا سُئل بعد ذلك عن السجن قال: يصلح لدراسة القرآن !(٣).

---

(١) الشماخي؛ السير، ٣/٢
(٢) نفسه ١٩/٢
(٣) أبو زكرياء؛ السيرة ١/ ٢٠٠ و: الدرجيني؛ طبقات ١٢٦/١ و: الشماخي؛ السير ٣٦/٢، ٥٥-٥٦

٣٧- أما أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي (ت ٤٧١ هـ) رحمه الله فقد أفنى شبابه في القراءة، وبقيّة عمره في الإقراء، كما يصفه الشماخي.(١)

٣٨- واستمع إلى ما يحكيه أبو العبّاس أحمد بن محمد بن بكر (ت ٥٠٤ هـ) عن نفسه؛ يقول: «كنتُ أقرأ على الشيخ سعدون(٢)، فجازت مسألة ذبيحة الأقلف، قال: في أكلها قولان. فلم ينسبها، فدخلتُ إلى الديوان، وكان بجبل نفوسة ديوانٌ اشتمل على تآليف كثيرة، فلازمتُ الدرسَ أربعة أشهر، لا أنام إلا فيما بين أذان الصبح إلى صلاة الفجر، فتأملتُ ما فيه من تآليف أهل المشرق، فإذا هي تقرب من ثلاثة وثلاثين ألف جزء، كلُّها لأهل المذهب فتخيّرتُ أكثرها فائدة فقرأتُه»(٣).

٣٩- ولا بُدَّ لسفينة الزمن أن تقف وقفةً متأنّيةً عند «بحرِ العلمِ الزاخرِ، المُسَخَّرِ للنَّفْعِ فتَرَى الفُلْكَ فيه مَوَاخِرَ»(٤) الإمامِ العلامةِ المفسّرِ المحدثِ الفقيهِ الأصوليِّ اللغويِّ الجدليِّ الفلكيِّ الرَّحَّالةِ أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلاني (ت ٥٧٠ هـ) رحمه الله، يقول عنه الشماخي: «ذُكر أنه لازَمَ الدار سبعةَ أعوام، فلا يجده الزائر إلا ناسخًا، أو للأقلامِ باريًا، أو للدراسةِ فاعلاً، أو للحبر طابخًا، أو للدواوين مقابلاً، أو للكتب مسفرًا ...»(٥).

---

(١) الشمّاخي: السير، ٢/ ٨٢
وعبارة الدرجيني في طبقاته ٢/ ٤٢٥:
«أفنى في الدراسة أيام الشباب، وفي حفظ كتب الفقه كتابًا بعد كتاب».

(٢) لعلّه شيخه: سعدون بن يفاو النفوسي (ق ٥ هـ). انظر ترجمته في: معجم أعلام الإباضية ٣/ ٣٥٥

(٣) الدرجيني: طبقات ٢/ ٤٤٥، الشماخي: السير، ٢/ ٩٠
البرادي: رسالة في تقييد كتب أصحابنا (المطولة) ملحقة بكتاب الموجز لأبي عمار بتحقيق الطالبي ٢/ ٢٨٧.

(٤) هكذا وصفه الدرجيني في طبقاته ٢/ ٤٩١.

(٥) الشماخي: السير ٢/ ١٠٥

٤٠ - قال أبو العبّاس الدرجيني : « ولقد حدّثنا بعض الثقات قال: وقفتُ ببلادنا قسطيلية وسوف وأريغ ووادجلان على سبع نسخٍ أو ثمان من كتاب العدل والإنصاف تأليف أبي يعقوب كلها بخط يده. وأمّا أنا فرأيتُ منها ثلاثًا » .[1]

٤١ - وأبو يعقوب أعجوبةٌ من أعاجيب زمانه، نبَغَ في علومٍ شتّى وبَزَّ فيها أقرانَه، ورحَلَ إلى ديارٍ كثيرة، وشهد له القريبُ والبعيدُ والصديقُ والعدوّ بالفضل، وترك من الآثار والمؤلفات ما جدَّدَ به المذهبَ وأحيا به الدين، منها « تفسير القرآن الكريم » و « العدل والإنصاف في أصول الفقه والاختلاف » و « الدليل والبرهان » و « مرج البحرين » في علم المنطق، و « ترتيب المسند » وهو المتداول الآن، و « رسالة في تراجم رجال المسند »، و « فتوح المغرب في تاريخ بلاد المغرب » و « أجوبة فقهية ورسائل متنوعة » و « ديوان شعر » غاب أكثره وبقي منه القليل.

---

(١) الدرجيني : طبقات ٢/ ٤٩٢ .

٤٦ - وذكر الشمّاخي في ترجمة أبي زكريا يحيى بن أبي العز (حي ٧٠٤هـ) رحمه الله أنه كان «نسّاخًا للكتب، ولم يشتغله العلم عن النسخ، ولا النسخ عن العلم»[١] قال: «ورأيتُ له كتبًا كثيرة بخطه من التفاسير وشراح الدعائم والضياء وغير ذلك، لا تخلو خزانة من خزائن كتب نفوسة من خطه».[٢]

٤٧ - ويروي الشماخي أيضًا عن الشيخ أبي طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي (ت ٧٥٠هـ) أنه دخل عند العشاء الآخرة إلى مسجد بلده جيطال، وكان الشيخ عامر الشماخي (ت ٧٩٢هـ) رحمه الله ينظر في كتاب، «فقعد إليه يسأله عن المشكلات والمبهمات، إلى أن انفجر الصبح، ولم يقف في واحدة، فإذا سُئِل عنه بعد ذلك يقول: عامر وحيد عصره».[٣]

٤٨ - ويُحدِّثُ القائم بمسجد القابل عن الإمام الخليلي (١٣٧٣هـ) رحمه الله قبل إمامته فيقول: ذاتَ ليلة قام بالفور بعد الصلاة، فقعَدَ على السراج يقرأ، فلمّا خرَجَ الناسُ وقفتُ على رأسه، فقال: ماتريد؟ قلتُ: أطفئ السراج. قال: أُريد أن أُطالِعَ قليلاً، ثم أكفيك إطفاءَه. قال: فرُحْتُ عنه ونِمْتُ في بيتي، وكانت من ليالي الشتاء، وقمْتُ قبيل الفجر إلى المسجد للأذان لصلاة الصبح، فلمّا دخلتُ وجدتُ الشيخ كما هو وقتَ العشاء، فوقفتُ على رأسه فرآني، فقال: قُلْتُ لكَ أنا أكفيكَ إطفاءَ السراج، فاذهب أنت. قلتُ: ياسيدي، ذهبتُ فنمتُ في بيتي، والآنَ جئتُ لصلاة الصُّبح. قال: سبحانَ الله ماشعرتُ بذهاب الليل. ثُمَّ ترك الكتاب.[٤]

---

(١) الشماخي، السير ٢/١٩٣.
(٢) نفسه ٢/١٩٣-١٩٤.
(٣) نفسه ٢/١٩٨.
(٤) الشيخ سعيد الحارثي، اللؤلؤ الرطب ص ٤٣.

٤٩- ولما وصل أبو زكريا جربة قطع صلته بميزاب، وأعطى نفسه للعلم، إنه لا يأتيه من ميزاب إلا أخبار الفتن التي تشغل فكره، وتعوقه عن العلم، وكانت رسائل أهله إذا وصلته لا يقرؤها، بل يضعها في كوة عميقة في حجرته، ثم يسد الكوة لكي لا يراها فتحدثه نفسه بقراءتها! ولما أتم دراسته واستعد للرحيل فتح الرسائل وقرأها، فإذا جل أسرته قد ماتوا، ووجد في الرسائل من الأخبار المزعجة ما لو قرأه لقطعه عن العلم »[1].

٥٠ - أما تلميذه الشيخ ضياء الدين الثميني (ت ١٢٢٣هـ) رحمه الله فقد عانى من قومه أشد العناء، حتى إذا تأزم الأمر بينه وبينهم، وأحس بخطر المؤامرة يجول بخلدهم؛ اعتصم بمحله، واستوثق بر تاج بابه، فانكب على التأليف. أجل، اعتزل في محله، لا يفتح بابه في وجه أبناء بلدته، فإذا طرق الباب أحدهم مستفتيًا ناداه من داخل: ادخل! فيقول له: إن الباب مقفل. فيجيبه الشيخ: أنتم الذين أغلقتموه على أنفسكم. اسأل! فيجيبه من وراء الباب، اللهم إلا إذا كان السائل من إحدى القرى غير سجن فإنه لا يمتنع عن فتح الباب، وظل على ذلك ملازمًا داره مدة ثماني عشرة سنة[2] لا يخرج منها إلا إذا حزب الأمة أمر!

وماذا كانت النتيجة؟

حصيلة ثرية من الكتب والذخائر العلمية، أغنى بها المكتبة الإسلامية وخلد بها ذكره في العاملين[3].

---

(١) محمد علي دبوز، نهضة الجزائر ١/٢٥٧

ويشبه هذا قصة أبي محمد وسيلان المزاتي لما رحل إلى نفوسة (انظرها في: طبقات الدرجيني ٢/٣٧١، وسير الشماخي ٢/٥٦) وقصة أبي عمار عبد الكافي التناوتي (انظرها في: طبقات الدرجيني ٢/٤٨٦، وسير الشماخي ٢/١٠٤) وقصة سجيمان بن نصر النفوسي (انظرها في: سير الشماخي ٢/١٣٧).

(٢) وقيل: خمس عشرة سنة.

(٣) انظر: ضياء الدين الثميني؛ كتاب النيل وشفاء العليل، بتحقيق: بكلي عبد الرحمن بن عمر ص ١٥ (مقدمة المحقق).

٥١ - وأترك المجال هنا للشيخ محمد علي دبّوز (ت ١٤٠٢هـ) ليحدّثنا بأسلوبه الجميل عن قطب الأئمة محمّد بن يوسف اطفيش (ت ١٣٣٢هـ) رحمه الله؛ يقول دبّوز:

«كان الشيخ - وهو قطبٌ عند العلماء وفي درجة الاجتهاد - على هذه اللّهفة للدرس، لم ينقطع عن القراءة الطويلة العميقة والتحصيل المستمرّ إلى أن انتقل إلى ربه وعمره ستٌّ وتسعون عامًا.

وكان القطب يعمل أكثر من ست عشرة ساعة في ليله ونهاره، وكان لا يلذّه إلا كدُّ الذهن في التأليف أو التدريس أو القراءة.

وكان حريصًا على وقته لا يضيّع دقيقة منه، وكان يكتب أو يقرأ وهو على دابّته مسافرٌ في البادية، حدثني المرحوم خادم العلم والعلماء والدنا الروحي السيّد بكير بن عدّون أنه كان يأخذ بلجام فرس القطب أو بَغْلِه وهو مسافرٌ إلى القرارة من بريان، فيقود فرس القطب، وهو لا يشتغل في طريقه إلا بالتأليف، له ألواحٌ كثيرة يكتب فيها مسوّدة[1] الكتاب، يضعها في خُرْجِه[2]، ويضع الدواة[3] في الخرج أيضًا على نحوٍ لا يقلبها برجّة السير، فيملأ تلك الألواح الكثيرة كلها بمسودة الكتاب قبل أن نصل القرارة، وإذا وصلنا اشتغل بتبييضها[4] وكتابة غيرها، وكان خرجه مملوءًا بكتبه التي يصطحبها معه، وإذا سافر إلى بلدٍ من البلدان يهيّئون له دارًا خاصّةً به، ويعدون المصباح الكبير اللائق للتأليف والقراءة

---

(١) المُسَوَّدة: هي نسخة الكتاب الأولى قبل تبييضه.
(٢) الخُرْج: وعاءٌ معروف. القاموس ص ٢٣٧.
(٣) الدواة: المِحْبَرة. المعجم الوسيط ص ٣٠٦.
(٤) التبييض: تفريغ ما في مُسَوَّدة الكتاب في النسخة النهائية.

في الليل، مع أنه لا يقيم في زيارته إلا الأسبوع والأسبوعين وأقل. وسافر إلى الحجّ بحرًا مرتين، وكان يؤلف في السفينة لا ينكفّ عن التأليف حتى يصل الحجاز !! » .[1]

٥٢- « وكان القطبُ قويَّ البنية عارم الحيوية، وكان له في أغلب عمره ثلاث زوجات، وكان في شبابه، ما منهن إلا وهي ذات جمال بارع يحبها وتحبه، ولكنه لا يقضي معظم ليله في العطر والأحضان كالضعفاء، بل يبيت سراجه يشتعل معظم الليل إلى قرب السحر! وهو يؤلف لا يعرف النوم ولا يعرفه، وقد ظل منذ صدر شبابه إلى وفاته وهذه عادته في الليل، شهد بذلك زوجاته، وحدثني بذلك تلاميذه، وقد رصده الحرس فوجدوه لا ينام إلا نحو ثلاث ساعات بعد منتصف الليل ! »[2]

٥٣- « كان القطبُ ذا شخصيّةٍ اجتماعية قوية، وكان يهتم بالمجتمع، ويعمل كل الوسائل لإصلاحه، ولكنه لحرصه على وقته لا يحضر الأعراس ولا يجيب دعوات الولائم، ولو كانت عند أقاربه، ولا يغشى الأسواق لكي لا يشغله الناس بالتوافه عن أعماله، وقد أمضى اثني عشرة سنة ولم يدخل سوق البلد، على قرب السوق من داره، وإذا أراد ناحية من المدينة مرَّ إليها من أبعد طريق وتحاشى المرور من السوق »[3] .

٥٤- وبعد عدّة مواقف رائعة في حياة القطب ذكرها الأستاذ دبّوز يقول معلّقًا عليها :

---

(١) محمد علي دبوز ؛ نهضة الجزائر الحديثة ١/ ٣٨-٣٠٩

(٢) نفسه ، ٣٠٩/١

(٣) نفسه .

« بهذا الجد في الدرس، واقتناء الكتب، والحرص على الوقت، والعمل في الليل والنهار، والتمسك بالنظام؛ صار شيخنا قطبًا في العلوم، وعَلَمًا للنهضة الحديثة، وسَّعَ نطاقها، وهزم خصومها، ودخل بها في شبابها، وترك في العالم الإسلامي سيما في المغرب دويًّا لا زال يرنّ في آذان العارفين إلى اليوم »[1].

٥٥ - ثمّ يواصل دبّوز قائلاً - بعد أن ذكر جدول الشيخ اليومي - :
« وكان يبدأ التدريس في طلوع الشمس فيستمر إلى الظهر، وكانت تستغرق من الوقت ست ساعات متصلة يقضيها القطب كاملة لا يقوم من مجلسه ولا يستريح، وطبقات التلاميذ والفنون تترى عليه، وقد يكل الطلبة ولا يكل ».

٥٦ - « إن لذته الكبرى في القراءة والتأليف والدرس، لا يستطيع منظرٌ جميلٌ أو محفلٌ بهيج أو لذة أخرى أن تغزو قلبه فتجتذبه من مكتبته ومعهده، ... وكم من مرة تخرج المدينة كلها إلى حفلة عرس، أو للتفرج على الأودية إذا سالت ... كلُّ المدينة تنهل لذاتها من مناظر الوادي إلا القطب ! فإنه يحمد الله على أن أغاث البلاد، ثم يعكف على دروسه للتلاميذ، وعلى أعماله اليوميّة لا يوقفها كما فعل غيره ... » .

٥٧ - « كان القطب يغرس ويوحي بحب العلم إلى تلاميذه، ويريد أن يكون لذتهم الكبرى، وينكر على من يترك الدرس لمتاع من زينة الدنيا ...
عاب على الشيخ أبي اليقظان وزملائه التلاميذ أن يتركوا قراءتهم ويخرجوا إلى

---

(١) محمد علي دبوز؛ نهضة الجزائر الحديثة ١/ ٣١٠
(٢) نفسه ١/ ٣٦٧
(٣) نفسه ١/ ٣٦٧ - ٣٦٨

البساتين في وقت العمل، فقال له: بارك الله فيك، نريد أن نرى أودية بريان، لقد سالت، والمدينة كلها في السدود تتفرج. وكان إبريق مملوءًا بالغدير[1] أمام القطب، فرفع به يده وأساله في الطشت قائلاً: أتريد الغدير؟ هاهو الغدير، هاهو الغدير، أنظر إليه أصفر من الوادي، تفرج تفرج! فضحك تلاميذه، وضحك القطب، فأذن لتلاميذه بالذهاب إلى الأودية، أمّا هو فبقي في دار نزوله، مع تأليفه، لا يخرج ولا يرضى أن يخرج!! »[2].

٥٨- وإن كانت هذه همّة الشيخ؛ فقد بدا أثر ذلك واضحًا في طُلابه، فهذا تلميذه النابغة الشيخ الضرير صالح بن عمر لعلي (ت١٣٤٧هـ) رحمه الله أقام في حجته الثانية عامًا كاملاً في الحجاز، أمضاه كله في القراءة المفيدة وفي مجالسة العلماء وفي العبادة في الحرمين الشريفين. « إنّ حبّه للعلم هو الذي حدا به للحج مرّةً ثانيةً، والإقامة عامًا كاملاً في الحجاز، ليخلو لكتبه ويقيم في أشرف البقاع »[4].

٥٩- « وكان قد أعطى نفسه للعلم، لا تراه إلا في معهده مع تلاميذه يلقي الدروس، أو في مكتبته قارئًا أو مؤلفًا، أو في المسجد يعظ الناس ويرشدهم، وكان حازمًا كلّ الحزم في أعماله، قد جعل لأوقاته كلها نظامًا دقيقًا لا يخالفه، محبًّا لعمله كلّ الحب »[5].

---

(١) يعني الماء.
(٢) الطشت: وعاء معروف، وفيه لغة بالسين.
(٣) محمد علي دبوز؛ نهضة الجزائر الحديثة ١/٣٦٩.
(٤) نفسه ٢/١٤٠
(٥) نفسه ٢/١٤٠-١٤١
يقول الشيخ بيوض عنه: « هو في اعتقادي ومعرفتي خاتمة المحققين بعد الشيخ الطفيش، لم يوجد بعد الشيخ اطفيش مثله في ميزاب ». نهضة الجزائر ٢/١٤٥

٦٠- ولما تزوّج المرة الثانية اختار زوجة مثقفة محبة للعلم، عارفة للقراءة والكتابة، « فكانت هي التي تقرأ له في الليل، يجلسان بعد صلاة العشاء في مكتبته، فتقرأ له بصوتها الحنون إلى بعد نصف الليل، وقد تستمر القراءة إلى الصّباح، وهو في مجلسه مستوٍ يُصغي في انتباه ونشوة لا يتعب ولا يمل، وهي على مصباحها تتابع القراءة في انتباه ونشوة لا تمل ولا تتعب ... وكانت هي التي تكتب له ما يؤلف في ليله، وتستخرج له ما يريد من كتبٍ من خزائنه، كانت ليالي هما للعلم لا يلذهما فيها سواه ! »[1].

٦١- وهذا الشيخ الحاج عمر بن يحيى (ت١٣٣٩هـ) رحمه الله في بداية دراسته إذا خَرَجَ من دار التلاميذ يسرع إلى الغابة ليعمل مع والده، « وكان وهو يرسل الماء في أحواض النخل يحفظ ما يستطيع حفظه من المتون، وربما اتكأ بصدره على فأسه في الحقل وتوقّفَ عن العَمَل وشرع يفكر في درسه ويسترجع مسائله . إنّ نفسه تحدّثه بأنه خُلِقَ للعلم ! »[2].

٦٢- ولا ننسى جانب النساء، فهذه شقيقة الحاج عمر السيدة مامة بنت يحيى كانت ورعة مثقفة، « تكتب لوحها في القرآن فتضعه بجانب نولها، فتحفظ وتنسج، وتؤنس نفسها في منسجها بتلاوة ما حفظت من القرآن، وكانت تجلس للنسج والقراءة في مقصورة داخل الدار لكي لا يسمع صوتها من الشارع . يرحمها الله »[3].

---

(١) دبوز، نهضة الجزائر ٢/١٤١

(٢) نفسه ٢/١٦٨

(٣) نفسه ٢/١٦٥

٦٣- ومما يروى عن الشيخ حبيب بن سالم أبو سعيدي (حي: ١١٦٧هـ) أنه كان من عامة الناس في بادئ أمره، وأصابه فقرٌ مُدقِع، وتوالت عليه كثيرٌ من الضائقات الماليّة، وكان رجلاً أعمى، فضاق ذرعًا بما هو عليه من سوء الحال، حتى إنّ نفسه الأمارة بالسوء سوّلت له أن يقضي على حياته، ولكن من لُطف الله سبحانه وتعالى به أنْ تنبّهت لذلك خادمة له، فأمسكت به قبل فوات الأوان، ونهرته بشدّة قائلةً له: أتريد أن تلقى الله منتحرًا؟! هلّا صَرَفْتَ هِمّتك إلى طلب العلم. فكّر الرجل فيما قالت، وتأمّل في هذه النصيحة الغالية، وجعلها نصب عينيه، فصرف همته ولوى عنانه إلى طلب العلم النافع، وبدأ بالتفقّه في أمر دينه، وعندما علِم منه أهل الصلاح رغبتَه في طلب العلم والتفرغ له أعانوه بما يقدرون عليه من مال، وجعلوا له مَن يقرأ له من طلاب العلم، حتى ذُكِرَ أنهم مكثوا على هذه الحال سبع سنين متواصلة، كلّما تعِب أحدُ الطلبة من القراءة جلَس إليه آخر ليقرأ له، وهو قاعدٌ يستمع وينصت بانتباه، ثم لمّا أروى ظمأه ونهَل من مناهل العلم الشرعي الشريف خرَجَ إلى مجتمعه فصار من كبار علماء عصره.[1] *

٦٤- ويحدثنا الشيخ سعيد بن خلف الخروصي حفظه الله عن شيخه العلامة خلفان بن جميّل السيابي (ت١٣٩٢هـ) فيقول: «صَحِبْتُه اثني عشر عامًا، فرأيتُ أوقاتَه موزّعة في فضائل الأعمال، شأن الكملة من الرجال، فلا تجده إلا مصلّيًا، أو ذاكرًا داعيا، مستقبلاً المحراب، أو تاليًا الكتاب، أو كاتبًا أو مملّيًا فتوى، أو حاكمًا بفصل الخطاب في دعوى، لا يخلو مجلسُه من طالب علمٍ أو مسترشد، أو زائرٍ في الله أو مسترفد، لا يبخل بموجود، كما لا يتكلّف المفقود، لا تسمع في مجلسه أحاديث الدنيا، بل هِمّتُه ميّالةٌ إلى الصفات العُليا»[2].

---

(١) الغاربي: الوقتُ عمارٌ أو دمار (محاضرة مسجّلة)

(٢) خلفان بن جميل السيابي؛ فصول الأصول. (مقدمة المحقق) ص ٢٥.

نقلاً عن: سعيد بن خلف الخروصي؛ أيام مع المرحوم العلامة الشيخ خلفان بن جميل السيابي، ص ١٥٩

ورقة عمل قدمت للمنتدى الأدبي بسلطنة عُمان.

* ذكر القصّةَ ابنُ رزيق في الصحيفة القحطانية (مخ) ٥١٨، والفتح المبين ١٤٤-١٤٦.

٦٥- ويروى عن الشيخ السعدي (حي ١٣٨٢هـ) أنه نَسَخ كتابه الضخم «قاموس الشريعة الحاوي طرقها الوسيعة» ثلاث مرات بنفسه، والكتاب يتكون من ستين مجلداً !

ويُذكر أنه كان يعكف على نَسْخِه طول الليل، ويُشعل قنديلاً يستضيء به، ويستمر على ذلك بعد صلاة الفجر حتى طلوع الشمس. وفي إحدى المرات كان مستغرقاً في النسخ وقد طلعت الشمس ولم يطفئ القنديل، فمرّت به راعية، فلمّا رأت ذلك المشهد عجبت منه واتّهمَتْهُ بالجنون، إذ كيف يُشعل قنديلاً والشمس يملأ ضوؤها الدنيا ؟! فلله درُّه.[1]

٦٦- وقد اعتنى علماؤنا رحمهم الله بقراءة كتاب "بيان الشرع" للشيخ الكندي، والرجوع إليه في مسائل الأديان والأحكام.

قيل: إن الشيخ العلامة محمّد بن مسعود بن سعيد البوسعيدي المنحي (ت ١٣٠٠هـ) كرّر قراءته ستين مرّة !

وقيل: ثلاثاً وسبعين مرّة !

قال الشيخ البطّاشي: «والعدد الأول ذكره بنفسه للشيخ الفقيه سالم بن فريش الشامسي -فيما سمعت- والله أعلم»[2].

ويقول الشيخ أبو مسلم البهلاني راثياً قاضي الجزيرة الشيخ سالم بن أحمد الريامي (ت ١٣٣٧هـ):

ويا أسفاه نُوحي عليه ... وفرّي للبلا وسْطَ الخزين
بيانَ الشرع هل لك من بيانٍ ... بيانَ الشرع هل لك من قرين
ويا تمهيدَ سيّدنا الخليلي ... تمهّدْ أن تعيشَ بلا خدين
فإنّ العالمَ المِقْباسَ أضحى ... لَحيداً بين أحجارٍ وطين[3]

---

(١) انظر: محمد بن عامر الكارتي؛ إضاءة حول حياة الشيخ العلامة السعدي ص ٤

(٢) البطاشي؛ إتحاف الأعيان (ط٢) ١/٣١٠

وانظر: حمد بن سيف البوسعيدي؛ الموجز المفيد ص ١١٩.

(٣) أبو مسلم: الديوان ٤٢٢.

٦٧- ولأبي إسحاق الحضرمي (ق ٥ هـ) رَبِّ السيف والقلم رحمه الله هذه الوصيَّة الجامعة التي ضمَّنها كتابه « مختصر الخصال » في المنهج الذي ينبغي أن يسلكه طالب العلم ، قال رضي الله عنه :

« ويَبْتَدئ كُلَّ أمرٍ ذي بالٍ بحمد الله والصلاة على نبيِّه محمَّد صلى الله عليه وسلم ، ويجعل دهرَه أثلاثًا : ثلثًا لمَرْقَدِه ، وثلثًا لمعاشه ، وثلثًا لمعاده ، وهي أحقُّ باهتمامه ؛

- فوقتُ مرقده صَدْرٌ من ليله وساعة من نهاره قبل الزوال في غير الشتاء .
- ويطلب المعاشَ فيما يعلم أنه غير شاغلٍ له .. ، فقد تكفَّل الخالقُ برزق عباده .
- ويجعل معادَه أثلاثًا :
  - درس علمٍ عند خلوته وحضور ذهنه .
  - ودرس قرآنٍ في وقته عند وحشته .
  - ودرس أدبٍ عند فراغه من طلب معاشه

ويخلط ذلك بنوادر العرب من الحكمة والشعر ، ليُريح بذلك قلبَه ، ووقت التلاوة حين الصبح إلى الشروق .. ويجتزئ من التلاوة بجزءٍ من القرآن في كل يومٍ ، والله الموفق للخير » .

وأجْعَلُ هذه الوصيَّة مِسْكَ الختام لهذا المجموع ، وأسأل الله أن يعينني على إتمامه ، وهو حسبي وعليه اتكالي .